قراءة جديدة في شعر قيس بن الخطيم

أ.د. أيهم عباس القيسي
كلية الآداب – جامعة بغداد

حظي الشعر بمكانة متميزة في حياة العرب وتراثهم ، واحتل منزلة متقدمة في سجل اهتماماتهم وأخبارهم ، نظراً للدور الذي نهض به ، والمهمة الكبيرة التي تكفل بها في حياتهم . فلم يكن لهم شاغل سواه ، فهو مستودع مآثرهم . وسجل احسابهم وأنسابهم . وقد أشار أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) هـ إلى حاجة العرب إلى الشعر ، فقال (هو الذي يقيّد علـيهم مـآثرهم ، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عددهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ، ويخوّف من كثرة عددهم)[١].

وبين ابن سلام (٢٣١) هـ مدى الاهتمام الذي حظي به الشعر عندهم ، فقال : (فهو ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون وإليه يصيرون)[٢]. وكان الغلام إذا بلغ فقال من الشعر شيئاً هنيء بـه قومـه ، واستبشـرت بـه عشيرته . ورشحوه للمنافحة عنهم والذبّ عن أعراضهم[٣] . وخلاصة القول فقد ازدهر الشعر بين العرب بشكل واسع حتى بات من الصعوبة حصر شعرائها[٤].

ولاشك أن هذا الاهتمام بالشعر نابع من قيمته وارتباطه بمظاهر القوة والشجاعة والكرم والنخوة ، التي طالما سعت القبائل إلى تعزيز هذا الجانب في حياتها .

وقد تعرض هذا التراث الضخم من تراث أمتنا الشعري إلى كثير من الضياع والإهمال ، كان من نتيجته أن فُقدت الكثير من الدواوين والمجاميع الشعرية. وقد أكد هذه الحقيقة علماء الأدب ونقاده .

ولم يقف الخيرون من الباحثين والمحققين مكتوفي الأيدي أمام هذه الحالة التي يواجهها تراثنا الشعري ، بل اندفعوا بكل تفانٍ وإخلاص ، لإظهار ما يمكن إظهاره من الدواوين والمجاميع الشعرية التي سلمت من الضياع والإهمال، فانتشلت ما يمكن انتشاله من خلال تحقيق المخطوط من الدواوين ، وجمع المتفرق من إشعار الشعراء للمّ شتاتها ، وإعادة الحياة إليها . وهي مبهمة كبيرة ، لها قيمتها ودلالاتها العلمية في المحافظة على تراث الأمة الشعري ، وتفصح عن الجوانب الإبداعية والفنية التي قدمها شعراؤها ، فضلاً عما توفره من فرصة استكمال وإنضاج ما قدّم من دراسات ، وتقويم ما نشر من آراء ومحاولة أغنائها بالجديد من الأفكار والنظرات الجديدة .

وقد حفلت بعض تلك الدواوين والمجاميع الشعرية بدراسات وافية تناولت بالدرس والتحليل حياة هؤلاء الشعراء ، وأبرز الموضوعات والأغراض الشعرية التي عالجوها أو تناولوها في إشعارهم .

وتأتي محاولتنا هذه لقراءة شعر قيس بن الخطيم في إطار المحاولات العديدة الرامية إلى استكمال ما ذكره محققا ديوان قيس بن الخطيم ، وتكوين صورة واضحة الملامح لشعر هذا الشاعر ، وتحليل نماذجه والوقوف عند أبرز الموضوعات والأغراض الشعرية التي تناولها ، وتحديد أبرز الظواهر الشعرية والفنية في شعره .

وقيس بن الخطيم هو الشاعر الجاهلي المشهور من أهل يثرب ، وهو شاعر الأوس وأحد أبطالها الفرسان في الجاهلية . ولعل أول ما اشتهر به قيس تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما .

وتظن علينا المصادر والمظان الأدبية بأخبار قيس وحياته ، وبشكل لا يعيننا على تصوير حياته تصويراً واضحاً ، إذ لم تذكر سنة ولادته ، أو

الكيفية التي نشأ عليها وترعرع . وكل الذي وصل إلينا أنه كان من فرسان الأوس المتميزين ، وشعرائها المعدودين .

وكانت له مع شعراء الخزرج حسان وعبد الله بن رواحة مناقضات ومفاخرات بسبب حالة الحرب المستمرة قبل الإسلام بين الحيين .

وهنالك إشارات يسيرة إلى وفادة قيس بن الخطيم على النبي (ﷺ) ، وقد أشار المرزباني إلى ذلك ، فقال : (وقدم قيس على النبي (ﷺ) بمكة فعرض عليه الإسلام ، فقال : إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي ، وفيها بقية من ذاك فأذهب فاستمتع من النساء والخمر ، وتقدم بلدنا فأتبعك . فقتل قبل أن يتبعه)[٥] . فقيس قد أدرك الإسلام ، ولكنه لم يسلم ومات قبل الهجرة .

أما شعره فقد اتفق المؤرخون على أنه شاعر مجيد ، وقد روى ابن سلام (أن بعضهم من يفضله على حسان شعراً)[٦] . ولم يمنع حسان بن ثابت برغم حالة المواجهة والمنافرة المستمرة بينه وبين قيس بن الخطيم من الاعتراف له بالمقدرة الشعرية والتفوق في النظم في قوله : ((إنّا إذا نافرتنا العربُ فأردنا أن نخرج الحبرات (ضروب من برود اليمن الموشاة) من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم[٧] . وكان معاوية بن أبي سفيان إذا قدم عليه وفد المدينة – قال : انشروا علينا حبرات قيس[٨] .

وقد عدّد ابن سلام في شعراء القرى العربية ، وهي خمس المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين . وأشعرهن المدينة موطن شاعرنا قيس بن الخطيم، وشعراؤها الفحول خمسة ، من بينهم شاعرا الأوس قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت[٩].

أما القرشي صاحب الجمهرة فقد عدّه ضمن أصحاب المذهبات[١٠] . واعترف الشريف المرتضى لقيس بن الخطيم بفضل السبق والتقدم في الطيف

والخيال . فقال : (وقد قال الناس في الطيف والخيال فأكثروا ، وقد سبق في ذلك قيس بن الخطيم إلى معنىً كل الناس فيه عِيالٌ عليه)[١١] .

وقد حظي شعر قيس باهتمام اللغويين والنحاة والبلاغيين ، إذ استشهدوا بشعره في مسائلهم اللغوية والنحوية والبلاغية . وقد أفاض محققا ديوان قيس بن الخطيم[١٢] ، في ذكر الكتب التي استشهدت بشعره .

وبلغ مجموع شعر قيس المثبت في الديوان (٢٩٤) بيتاً ، توزع على موضوعات النقائض التي قالها في الرد على حسان وعبد الله بن رواحة ، وغيرهما . وبلغ عدد هذه النقائض سبع قصائد ، مجموع أبياتها (١٦٣) بيتاً مشكلة نسبة ٥٨% من مجموع شعره . في حين بلغت قصائد الفخر سبع قصائد مجموع أبياتها (٧٦) بيتاً مشكلة نسبة ٢٧% من مجموع شعره . في حين خصص أربع قصائد لموضوع الحرب ، بلغ عدد أبياتها (٣٤) بيتاً مشكلة نسبة ١٢% من مجموع شعره . واحتلت موضوعات الغزل والحكمة بقية النسبة والبالغة ٣% .

ومن خلال مطالعة النسب المذكورة للموضوعات الشعرية التي عالجها الشاعر ، نستطيع أن نؤشر أتجاه الشاعر إلى موضوعات الفخر والمناقضة والحرب . وهي موضوعات فرضتها عليه ظروف حياته المستمدة من واقع بيئته التي كانت تقدس قيم الشجاعة والبطولة ، وتحتفي بالشجعان من الرجال ، كما أن حالة الصراع المستمر بين قبيلته من جهة والخزرج من جهة أخرى هي عوامل مساعدة في أغناء تجربة الشاعر واتجاهه إلى موضوعات الحماسة والحرب . وهي بواعث كان لها تأثيرها الواضح في انتعاش الشعر وازدهاره . فضلاً عن كونه من الفرسان المتميزين في قبيلته .

ولاشك في أن كل هذه العوامل قد ساهمت في اتجاه الشاعر إلى هذه الموضوعات القريبة من نفسه .

ويشكل موضوع الحرب وما يتفرع عنه من حماسة وفخر ومناقضة الموضوع البارز في شعر الشاعر ، وهي سمة أنطبع بها معظم شعر الفرسان ؛ لأنها تمثل طبيعة حياتهم بعد أن ألفوا حالة الحرب ، وأحبوها في كثير من الأحيان ، لأنها ميدان اختبار الرجولة ، ومجال امتحان البطولة .

ولاشك أن طبيعة الحياة التي كان يعيشها الشاعر ، ونزاع قبيلته المستمر مع جيرانهم الخزرج قد فرضت عليه حالة الأعداد اللازم لمستلزماتها ، وتهيئة كل السبل الكفيلة التي توفر له تحقيق الغلبة والنصر ، وتمكنه من التعبير عن اعتزازه بالقبيلة ، والأرض التي شبّ عليها وترعرع بين أحضانها . غير أن هذا الإدراك الواسع لأهمية الحرب ، والاستعداد الواعي لتحمل ما تفرزه من نتائج ومواقف ، لم يبعد الشاعر عن جوهره الإنساني وسلوكه القديم ، وتطلعه إلى الحياة الهانئة الرغيدة التي تختفي فيها لغة التهديد والوعيد ، ويحلّ محلها أسلوب الحوار والتفاهم .

وإذا كان شاعرنا يرى في الحرب ميداناً لاختبار الشجاعة والبطولة ، فأنه في الوقت نفسه كان يتهيب من نتائجها ، وما يمكن أن تجر إليه من مصائب وويلات . وهي نظرة لا تنم عن خوف ولا تنطلق من تردد ، بل هو الخلق الإنساني الرفيع ، والمسؤولية الواعية تجاه الإنسانية . ولهذا فهو لا يبعث الحرب ظالماً ، لأنه يؤمن بالسلام طريقاً للحياة ، فيقول :

وكنتُ امرءاً لا أبعثُ الحربَ ظالماً　　فلما أبَوْا أشعلْتُها كلَّ جانبِ[١٣]

ولا ينطلق الشاعر في الدعوة إلى هذا الموقف الأخلاقي الرامي إلى السلام إلا من نظرة متحسبة لما يمكن أن تجرّ إليه الحرب من مصائب وويلات يكتوي بنيرانها الغالب والمغلوب ، حيث يقول في ذلك :

وقد عَلِموا أن متى نَبعثْ　　على مِثْلها تذكُ نيرانُها[١٤]

وإذا كانت نظرة الشاعر للحرب مبنية على أساس تفادي خوضها ، ومحاولة دفعها بكل السبل الممكنة ، ولكنه حين لا يجد وسيلة لدفع أذاها فأنه يستعد لها بكل ما يستطيع من قوة وبأس ، ويهيئ لها كل المستلزمات التي تمكنه من خوضها ، حيث يقول :

أربتُ بدَفعِ الحربِ حتى رأيتُها　　عن الدَّفْعِ لا تزداد غيرَ تقارُبِ

فإذْ لم يكُن عن غايةِ الموتِ مَدْفَعٌ　　فأهلاً بها إذْ لم تزلْ في المَراحبِ

فلما رأيتُ الحربَ حرْباً تجرَّدَتْ　　لبستُ معَ البُرْدَيْنِ ثوْبَ المُحاربِ[١٥]

ويأتي السلاح بكل مفرداته في مقدمة الوسائل والسبل التي حشدها الشاعر المذود عن قيمه ومقدساته . فحرص على اقتناء جميع الأدوات والمستلزمات التي تحقق له هذه الغاية . فكانت السيوف والرماح والدروع والبيض أبرز الأدوات التي جلبت نظره ، ولفتت انتباهه ، وهو يواجه المواقف الصعبة ، ويتعرض لحالات التحدي المستمرة .

أن الأهمية التي احتلها السلاح في حياة العرب ، أنعكست بتأثيراتها على فن الشعر . فشكلت إيحاءات السلاح ودلالاته مادة شعرية استعان بها الشعراء في التعبير عن تجاربهم ، (لأن السلاح كان يملأ حياتهم في ليلهم ونهارهم . ولو أحصينا ما قاله الشعراء في عصرهم السابق للإسلام في جميع الموضوعات والأغراض لوجدنا أن شعرهم في الحرب ، ووصف آلاتها شغل شطراً كبيراً في تراث قبل الإسلام وبعده .. حتى صار ما قالوه في أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً)[١٦].

وتبرز مفردات السلاح في شعر قيس بن الخطيم بوصفها جزءاً من الموروث الفكري والثقافي الذي عول عليه الشاعر في بناء الصورة الشعرية ، وتجسيد النموذج الفني المعبر ، والذي يستمد أوليته من نمط حياة الشاعر بوصفه من الشعراء الفرسان المعروفين بكثرة استخدامهم لمفردات السلاح في

شعرهم . (وتلك سمة طبيعية أن يتحدث الشعراء الفرسان عن أسلحتهم ، لأنها القوة التي يستندون إليها في حياتهم ، والعنصر الأساس الذي تعتمد عليه بطولاتهم)[١٧] . وهي بعد ذلك كله عنوان رجولتهم ورمز شجاعتهم ، تغلغلت في خلجاتهم وعاشت محفوظة في ضمائرهم وشكلت جزءاً مهماً من شخصياتهم ، ورافداً ثراً من روافد فكرهم وثقافتهم ، فانسابت متدفقة في شعرهم وقصائدهم.

وقد بلغت أبيات السلاح في شعر قيس (٣١) بيتاً من أصل (٢٩٤) بيتاً تمثل مجموع شعره ، حيث شكلت ١١% من شعره ، وهي نسبة توضح حجم اهتمامه بالسلاح ، وتجسد رافداً من الروافد التي استقى منها الشاعر مفرداته ومعانيه .

ويأتي السيف في مقدمة الأسلحة التي استأثرت باهتمام الشاعر وأعجابه، نظراً لأهميته الكبيرة وقدرته المتميزة . فكان حديث الشاعر عنه حديث الإعجاب والاعتزاز بكل جزء من أجزائه ، وكل خفقة من خفقاته . فهو يشفي الثأر ، ويذل الأعداء . ويغلي الهام . وقد تكرر استخدام السيف عند الشاعر في (١٩) بيتاً من أبيات السلاح البالغة (٣١) بيتاً ، وقد ذكره في أحوال مختلفة وصور متعددة ، ولكنها كانت تلتقي جميعها في تأكيد قوته وبيان أهميته في حسم المنازلات وتحقيق الغلبة له ولقومه .

فيشفي به النفس الظمأى للثأر[١٨] ، ويداوي به سقمها[١٩] ، ويذل بقوته إباء المتكبرين والعاصين[٢٠] ، ويغلي به هام أعدائه[٢١] . ولا يغفل الشاعر الإشادة بفضل السيف عليه ، فهو الذي يرفعه ويرفع قومه إلى مراتب الشرف والحسب الرفيع[٢٢].

ويحرص الشاعر على مواجهة أعدائه بالسيف ، لأنه سلاح الشجعان ، وعدة الفرسان . فيسوقهم إلى ما يريد سوق عزيز مقتدر ، حيث أشار إلى ذلك في قوله :

ظأرناكُمُ بالبيضِ حتى لأنتُمُ　　أذلُّ من السّقبانِ بين الحلائبِ[٢٣]

ويذكر الشاعر في خضم تناوله لمفردة السيف اشكالاً متعددة وأوصافاً مختلفة لهيئة السيف ، فهو لين ماضٍ ضريبته ، إذا ما هزّه رسبا[٢٤] . ولكي يجسد صلابة السيف وقوته فأنه يتخير لذلك أن تكون ضرباته على الخوذ الصلبة، حيث يقول :

الضّاربُ البيضَ المُتَّقنَ صُنعُهُ　　يومَ الهياجِ بِكلِّ أبيضَ صافي[٢٥]

ويحاول الشاعر من خلال استخدام دلالة الألوان أن يوضح فعل سيوفهم وهي تُسلّ بوجه الأعداء ، من خلال صورتين مختلفتين للسيوف ، فهي بيضاء حين تعرّى ، ولكنها تُغمد وقد علاها الدم ، وقد رقت ظباها من كثرة استعمالها ، حيث يقول :

يُعرَّينَ بيضاً حينَ نلْقَى عَدوّنا　　ويُغمدنَ حُمراً ناحلاتِ المضاربِ[٢٦]

وكانت الأواصر التي تجمع بين المقاتل وسيفه من القوة ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، وأن قوة تأثير السيف تبقى خاضعة لتوافق طرفين أساسيين هما السلاح واقتدار الساعد الذي يمسك به . فيصور قيس بن الخطيم سيطرته على السيف واقتداره في استعماله كمخراق اللاعب دلالة على القدرة والتمكن في استعماله[٢٧] .

وحين يثق الشاعر بالسيف هذه الثقة المطلقة ، فأنه لا يتحدث عنه بمعزل عن قدرته هو نفسه ، فهو والسيف صنوان لا يفترقان ، وقوة سيفه هي من قوة الساعد الذي يمسك به ، حيث أشار إلى ذلك في قوله :

ويومَ بُعاثٍ أسْلَمَتنا سيُوفُنا　　إلى نَسَبٍ في جزْم غسّان ثاقبِ[٢٨]

ولا ينسى الشاعر ، وهو يتحدث عن أهمية السيوف وحدتها قيمة الصبر في تحقيق الغلبة والظفر ، حيث يقول :

معاقِلُهُم في كلِّ يومٍ كريهةٍ　　مَعَ الصَّبرِ منسوبُ السُّيوفِ القواضبِ[٢٩]

ومثلما استعان الشاعر بالسيف ومفرداته في تصوير جوانب القوة والبطولة في معرض تناوله لموضوعات الحرب ، والإشادة بأمجاد قبيلته ومآثرها ، بوصفه يمثل جانب الاقتدار الحربي في شخصيات أبنائها ، فأنه لم يستغنِ عن دلالات السيف المجازية ، ولم تغب عن ذهنه إيحاءات صوره ومضامين رموزه في تجسيد معاني الاقتدار الأخلاقي والسمو والرفعة ، فاستحال السيف بهذا الوصف إلى عنصر رمز وإيحاء ، أعطى المعاني تدفقاً شعرياً ودلالة إيحائية . ففي معرض فخره بأبناء قبيلته ، وتصوير شجاعتهم ، جعل رقة سيوفهم وقوتها جزءاً مكملاً لشخصياتهم ، لإظهار سجاياهم الحسنة ومجدهم التليد ، فقال :

حسانُ الوجوهِ ، حدادُ السُّيو　　فِ ، يبتدِرُ المجدَ شُبَّانُها[٣٠]

واستخدم قيس صورة مزايلة السيوف للأغماد في تصوير نحافة بطون من تغزل بهن ودقتها ، فقال :

كأنَّ بطونَهُنَّ سُيوفُ هندٍ　　إذا ما هُنَّ زايلْنَ الغُمُودَا[٣١]

ويمثل الرمح نموذجاً آخر من نماذج الأسلحة التي استعان بها الشاعر في تجسيد صوره الشعرية ، حيث استخدمه في موضعين ، الأول في تصوير نخوة قومه وتلبيتهم إغاثة الملهوف[٣٢] ، والآخر في تجسيد اقتدارهم في مقارعة الخصوم من خلال صورة تكسر الرماح وتطاير أجزائها[٣٣].

أما الدروع فهي مضاعفة محكمة النسج سابغة[٣٤] يشبه من يرتديها الأسد في شجاعته وقوته ، حيث يقول :

فهُم جُسُرٌ تحتَ الدّروعِ كأنَّهُمْ　　أسُودٌ متى تُنفَ السُّيُوفُ تُضاربِ[٣٥]

وتشكل الخيل واحدة من معدات الحرب المهمة ، وعلى مدى قوتها وخبرتها بالحرب تكون درجة القتال ، وعلى ثباتها في المعركة تتوقف نتائج المعارك ، وكان حديث الشعراء عنها مفعماً بروح الاعتزاز والفخر . وقد تفنن الشعراء الفرسان في أوصاف خيلهم وتصوير جريها . وقد صور قيس خيل قومه فجعلها ضامرة طوى أحشاءها العدو[٣٦] . وهي سريعة العدو يوم الروع تتقدم الجياد في سرعة جريها[٣٧] . وقوية ترفع قوائمها بشدة[٣٨].

أن إدراك الشاعر لأهمية السلاح وقيمته الكبيرة في حياتهم ، قد جعله يسبغ عليه أعظم آيات الاحترام ويمنحه أجلّ درجات الاعتزاز والأكرام .

لقد كانت حالة التصارع المستمر بين الأوس والخزرج ، من البواعث المهمة التي ساهمت في تأجيج نيران المعارك الشعرية بين شعراء القبيلتين ، وإذكاء جذوة الشعر في نفوس شعرائها ، فوجدنا قسماً غير قليل من شعر قيس الذي وصل إلينا هو من النقائض . ذلك النوع من الشعر الذي كان مزدهراً في بيئة يثرب قبل الإسلام بسبب الصراع الدامي بين القبيلتين .

أن الصورة الاصطلاحية التي انتهى إليها فن النقائض في العصر السابق للإسلام ، هي أن يتجه الشاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً ، ملتزماً البحر والقافية والروي الذي أختاره الأول[٣٩] . وفي ديوان قيس بن الخطيم هنالك سبع نقائض قالها الشاعر في معرض تصديه لشعراء آخرين أو في الرد عليهم . وهي على العموم تسلك سبيلاً فنياً واحداً في جميع نماذجها . حيث تقوم على مقدمة القصيدة التي تشكل المفتاح الرئيس في تجربة الشاعر ، والمدخل لموضوعاته . أما المرأة في هذه اللوحة فقد كانت مرسومة شاخصة في صورة الطلل وآثار الديار والربع ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الفخر بشجاعته ، والإشادة بمجد قبيلته ومآثرها الحربية .

وبطولات أبنائها ، وبلائم الحسن في المعارك ، ويقرن كل ذلك باقتدارهم الأخلاقي وسلوكهم الإنساني النبيل .

وهو في الوقت ذاته يهجو الخصم ويحاول أن يسلبه جميع عناصر القوة والهيبة التي كان يعتز بها والمتمثلة في قيم الشجاعة والكرم والمروءة والنخوة وإغاثة الملهوف ونجدة الصريخ .

ويحاول الشاعر أن يسرب في ثنايا هذا التناول بعض أبيات الحكمة ، لاغناء تجربته الشعورية ، وتجسيد نظرته إلى أمور الحياة والناس بشكل موجز يعبر عن خلاصة التجربة والعبرة منها . بنظر ثاقب وبصيرة فذة ودراية واسعة باخبار الناس وأخلاقهم(٤٠).

وتدور معظم مناقضات الشاعر حول الفخر بمآثر أجداده ، والإشادة ببطولاتهم وشجاعتهم الحربية ، وقدرتهم في استعمال السلاح ، وما يمتلكونه من عدد ولوازم تعينهم في القتال . ولا يغفل الشاعر وهو يعدّد هذه المفاخر أن يُعرّض بخصومه . فيعيّرهم بفرارهم من المعركة ، وتركهم قتلاهم ، ولكي يعمق صورة الهزيمة فأنه يظهر صورة الندم والخيبة التي ترتسم على وجوه نسائهم ، وهن يشعرن بالخيبة والخسران ، حيث يقول :

أوبت لعوف إذْ تقول نساؤهم　　وبرمين دفعاً : ليتنا لم نحارب(٤١)

أن النظرة التحليلية لشعر قيس بن الخطيم ، وتأمل الظروف التي أحاطت بنشأته فضلاً عن طبيعة المهمة التي كان يضطلع بها بوصفه شاعر قبيلته التي كانت في حالة احتراب شبه مستمر مع جيرانهم الخزرج قد طبعت شعره بطابع الحماسة ومعالجة موضوعات الحرب . ولا شك أن اتجاه الشاعر إلى هذا النمط من النظم ، قد فرض عليه ضرورة الدخول المباشر إلى غرضه دون حاجة إلى وجود مطلع أو مقدمة يمهد بها الشاعر لقصيدته .

وقد وجدنا من خلال دراسة إحصائية أن (١١) قصيدة ومقطوعة[٤٢] من مجموع (٢٣) ، لم يستخدم فيها الشاعر أية مقدمة ، ولم يمهد لها بأي افتتاح ، بل ابتدأها بالغرض مباشرة ، أو باستخدام أسلوب الحكمة ، ومن ذلك قوله :

مَعاقِلُهم أجامُهُمْ ونِساؤُهم　　وأيْمانُنا بالمشرفيّةِ معقِلُ[٤٣]

وقوله :

منْ يَكُ غافِلاً لم يَلقَ بؤساً　　بنمْ يوماً بساحتِهِ القضاءُ[٤٤]

أن اتباع الشاعر لهذا الأسلوب في المعالجة يمكن أن يُعدّ خروجاً على التقاليد الفنية الموروثة في بناء القصيدة ، والتي حرص الشاعر على اتباعها في قصائده ومقطوعاته ، وقد بيّن ابن رشيق (٤٥٦) هـ ، ذلك من قبل بقوله : (ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة ، وذلك عندهم هو الوثب ، والبتر والقطع والكسع والاقتضاب)[٤٥] .

غير أن تأمل الظروف المحيطة بنظم تلك القصائد ، والجوانب النفسية التي كانت تنتاب الشاعر أثناء نظمه القصائد يمكن أن تعيننا في معرفة أسباب ذلك الخروج . فشاعرنا كان لسان حال قبيلته في صراعها المستمر مع الخزرج. فلم تمنحه تلك الأجواء فرصة الاستقرار والمعالجة المتأنية . فالجو العام كان يفرض عليه حالة من المعالجة السريعة للدخول في الموضوع دون تمهيد . وقد يكون شعر قيس الذي وصل إلينا ناقصاً قد ضاعت بعض مقدماته ، وهو افتراض يدعمه ما يذكره مؤرخو الأدب من ضياع نسبة غير قليلة من شعرنا العربي.

أما المجموعة الأخرى من قصائده فقد افتتحها بالنسيب ، وافتتاح الشاعر قصائده بالنسيب وذكر المرأة ومتابعة مشهد الظعن والرحيل هو منفذ يحاول من خلاله الشاعر الوصول إلى غرضه الرئيس . كما أن استخدام هذه الصيغة في الافتتاح يرتبط بطبيعة الموضوعات التي كان يتناولها الشاعر ، ويتصل اتصالاً

وثيقاً بطبيعة التجربة التي كان يعبر عنها . وهي صيغة تنسجم مع معالم البناء المتوارث في بناء القصيدة العربية ، والذي غالباً ما يتخذ أسلوب اللوحات المتعددة طريقاً للوصول إلى الغرض .

غير أن الشاعر لم يلتزم بهذا النمط من التناول التزاماً صارماً إذ تحرر من الوقوف على الطلل ومتابعة الرحلة على الناقة ووصف الثور أو الحمار ، بل غلب عليه أسلوب الانتقال من النسيب إلى تفاصيل التجربة التي بعثت على القول. ولاشك أن لجوء الشاعر في افتتاحيته إلى النسيب يمثل عنصر إثارة وتشويق في الوقت نفسه ، إثارة للنفس في استذكار سالف أيامها ولحظاتها الإنسانية السعيدة ، وهي تشعر بلذة اللقاء ونشوة الحديث ، وهي إلى جانب ذلك تخلق لدى السامع متعة الانتباه وتشده إلى متابعة التفاصيل .

أن اتجاه الشاعر في افتتاحياتها إلى النسيب كان ينطلق من وعي الشاعر لعملية انتقاء المقطع الملائم لخدمة موضوع القصيدة ، والذي ظل محصوراً داخل إطار الظرف المحيط بالتجربة الشعرية والحالة الشعورية والنفسية للشاعر ومحاولة تطويع الافتتاح لأستيعاب أبعاد التجربة . فقد طوّع قيس بن الخطيم افتتاحيته لتستوعب حالة النشوة والسعادة التي غمرت نفسه ، وهو يصيب بثأره من قاتلي أبيه وحده ، فاتخذ من ذكرى ليلى التي نأت وابتعدت ، ولكن صورتها ما زالت طرية في ذهنه ، فقد استطاع أن يستميلها إليه ، وهي ليست بكنّة ولا جارة ، ولكنه استطاع أن يصل إليها ، فشفى منها نفسه ، بعد أن جعلها تفضي إليه بما تكتمه وتسرد ، فأطفأ ظمأه من ودّها وحبها ، وهو في غمرة هذه النشوة والسعادة ينتقل من هذا المقطع إلى غرض القصيدة وهو الثأر من قاتلي أبيه وجده ، فينتشي سعادة وهو يثأر من قاتليهما ، حيث يقول :

تذكّرَ ليلى حُسنَها وصفاءَها　　وبانتْ فأمسى ما ينالُ إناءَها

ومثلِكِ قد أصبيتُ ، ليستْ بكنّةٍ　　ولا جارةٍ ، أفضتْ إليّ حياءَها

إذا ما اضْطبحتُ أرْبعاً خط مئـزري　　وأتبعْتُ دلوي في السخاء رِشاءها

ثأرتُ عدِيّاً والخطيم فلم أُضعْ　　ولايةَ أشياءٍ جُعِلْتُ إزاءها[٤٦]

ولو أردنا أن نتأمل ما يمكن أن يربط بين المقطعين مقطع الافتتاح ومقطع تحقيق الثأر لوجدنا أن حالة الزهو والنشوة التي يشعر بها الشاعر في كلا المقطعين هي الإطار الذي يربط بينهما .

ويتكرر مثل هذا التوافق في الحالة النفسية للشاعر وهو يعالج مقاطع القصيدة ، فيشعر بالراحة والنشوة وهو يسقي بني عوف وأخوتهم من الخزرج كؤوس المنايا . وهي نشوة وسعادة بدأها بالمطلع ، فجعل وصل محبوبته قوياً بعد أن استأنفته هي لتخلق وصلاً جديداً ، أما ما ترتديه فهو أفخر الثياب وأجملها ثم يستمر بعرض مفاتن محبوبته فيجعل طلعتها وخلقها التام يسحره سحراً ، ويملك عليه شعوره ، وهو في خضم هذا الجو الأخاذ الساحر ينتقل إلى صورة أخرى من صور الانتشاء فيسقي خصومه كؤوس المنية والهزيمة ، فيشعر باللذة والراحة ، حيث يقول :

صرمتَ اليومَ حبْلتَ من كنُودا　　لتُبدل حبْلَها حبْلاً جديدا

من الظبي إذا بمشينَ هوْناً　　تجلببْنَ المجاسِدَ والبُرُودا

كأنّ بَطُونهنَّ سيُوفُ هِنْدٍ　　إذا ما هُنَّ زايلْنَ الغُمُودا

تبدَّتْ لي لتقتلني فأبْدَت　　معاصِم فخمَةً منها وجيَدا

ووجهاً خلْتُهُ لمّا بَدا لي　　غداةَ البيْنِ دينارا نقيدا

سقيْنا بالفضاءِ كؤوسَ حتْفٍ　　بني عوفٍ وإخوتهُمْ تزيدا[٤٧]

ويلمس الدارس لمقطع الافتتاح في قصائد قيس بن الخطيم ومقطوعاته أن ثمة صورة أخرى للغزل أوردها الشاعر ، حيث اتخذ الغزل أداة لإيذاء خصومه في المناقضات التي قالها بحقهم ، إذ كان يشبب بنسائهم . فيكون بهذا

الوصف قد أسس لاستخدام الغزل بهذه الصورة ، ومهد لشعراء عصر صدر الرسالة والعصر الأموي من أمثال عبد الرحمن أبن حسان بن ثابت حين لجّ الهجاء بينه وبين يزيد بن معاوية فاتخذ الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى الهجاء المقذع ، وعبيد الله بن قيس الرقيات الذي شبب بعاتكة زوج عبد الملك وأم البنين زوج أبنه الوليد .

أما قيس بن الخطيم فقد شبب بعمرة وهي أم النعمان بن بشير وقيل هي أخت عبد الله بن رواحة في شعره ، وذلك رداً على حسان حين ذكر ليلى بنت الخطيم في شعره ، فعارضه في أربعة مطالع[٤٨] ، وكانت غمرة في جميع هذه المطالع هي محور تشبيب الشاعر ، فديارها ما زالت واضحة الرسوم ، برغم ما أصابها من المطر والرياح ، وهو يستطيع أن يميز رسومها ، ويحدد معالمها بدقة ؛ لأنها تمثل جزءاً من ذكرياته ، حيث كانت عمرة تحمله على الإقامة من شدة فتنته بها ، وحبه لها ، ولولا نفرة الناس عن منى بعد قضاء حجهم ونفرتهم إلى بلادهم لكان خليقاً أن يقيم فيها ، ثم يسترسل في سرد مواصفاتها ، وكيف أنه استطاع أن يستميلها إليه ، حيث يقول :

أتعرفُ رسماً كاطِّراد المذاهبِ　　لعمرة وحشاً غير موقِفِ راكبِ

ديار التي كادت – ونحنُ على منىً　　تحُلُّ بنا ، لولا نجاءُ الرَّكائبِ

تبدّتْ لنا كالشمس تحت غمامةٍ　　بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

ولم أرَها إلا ثلاثاً على منىً　　وعهدي بها عذراء ذاتَ ذوائبِ[٤٩]

وفي مقطع آخر يشبب بعمرة تشبيباً فاضحاً وينال من عفتها ووقارها ، فيقول :

لِعَمْرة – إذ قَلبُه مُحْجَبٌ　　فأنَّى بعمرةَ أنَّى بها

لبالٍ لنا وُدُّها مُنْصِبٌ　　إذا الشَّوْلُ لطَّتْ بأذْنابها[٥٠]

ولاشك في أن الشاعر يدرك مدى تأثير هذا التشبيب في خصمه ولهذا فهو يحشد كل هذه المستلزمات لخدمة موضوع القصيدة وغرضها الرئيس .

أن هذه الملاحظات التي تكونت لدي وأنا اقرأ شعر قيس بن الخطيم تفتح الآفاق إلى قراءات أخرى لشعراء آخرين جاءت دواوينهم خلواً من الدراسات التحليلية لأشعارهم ، واكتفى محققوها وجامعوها بتقديم تصورات عامة دون الخوض في التفاصيل . وأرى أن الدراسة التحليلية لشعر هؤلاء الشعراء ستضع أيدينا على حقائق جديدة ، وأضاءات مفيدة ، قد تغير كثيراً من الآراء والقناعات التي قيلت في تقويم أولئك الشعراء ، وبيان موهبتهم الفنية .

الهوامش :

١. البيان والتبيين ١/٢٤١ .

٢. طبقات فحول الشعراء / ٢٢.

٣. المسائل والأجوبة في الحديث واللغة / ٨ .

٤. طبقات فحول الشعراء / ٢٣ .

٥. معجم الشعراء / ٣٣٢ .

٦. طبقات فحول الشعراء / ١٩٠ .

٧. ديوان قيس بن الخطيم (تحقيق ناصر الدين الأسد/٥) .

٨. المصدر نفسه / ٦ .

٩. طبقات فحول الشعراء / ١٧٩ .

١٠. جمهرة أشعار العرب ٢/٦٣٣ .

١١. ديوان قيس بن الخطيم (تحقيق الأسد)/٦ .

١٢. ديوان قيس بن الخطيم (تحقيق د. إبراهيم السامرائي و د. أحمد مطلوب) / ١٢ .

١٣. ديوان قيس (تحقيق الأسد) / ٣٦ .

١٤. ديوان قيس بن الخطيم / ٢٨ .

١٥. ديوان قيس بن الخطيم / ٣٦-٣٧ .

١٦. شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي / ٤٠ .

١٧. الفروسية في الشعر الجاهلي / ١٦٧ .

١٨. ديوان قيس / ٦ .

١٩. المصدر نفسه / ١٠ .

٢٠. المصدر نفسه / ١١ .

٢١. المصدر نفسه / ٦٣ .

٢٢. الديوان / ٤٢ .

٢٣. المصدر نفسه / ٤٦ .

٢٤. المصدر نفسه / ١١٧ .

٢٥. المصدر نفسه / ١٢٩ .

٢٦. المصدر نفسه / ٤٣ .

٢٧. الديوان / ٤٢ .

٢٨. المصدر نفسه / ٢٨ .

٢٩. المصدر نفسه / ١٣٧ .

٣٠. المصدر نفسه / ٢٩ .

٣١. الديوان / ٩٠ .

٣٢. المصدر نفسه / ٢٦ .

٣٣. المصدر نفسه / ٣٩ .

٣٤. المصدر نفسه / ٣٨ .

٣٥. المصدر نفسه / ١٣٧ .

٣٦. المصدر نفسه / ٩١ .

٣٧. المصدر نفسه / ١٣٠

٣٨. المصدر نفسه .

٣٩. تاريخ النقائض في الشعر العربي / ٣ .

٤٠. ديوان قيس / ٧٣، ٨٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ .

٤١. ديوان قيس / ٣٥ .

٤٢. المصدر نفسه / تنظر القصـــائد ٨، ٩ ، ١١، ١٢، ١٣، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣ .

٤٣. ديوان قيس / ٨١ .

٤٤. المصدر نفسه / ٩٩ .

٤٥. العمدة ٢٣١/١ .

٤٦. ديوان قيس / ٣-٥ .

٤٧. ديوان قيس / ٨٩-٩٠ .

٤٨. المصدر نفسه / تنظر القصائد ٣، ٤، ٧، ٢١ .

٤٩. ديوان قيس / ٣٣-٣٦ .

٥٠. المصدر نفسه / ٧٩-٨٠ .

المصادر والمراجع :

١. البيان والتبيين + الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥) هـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة دار التأليف والترجمة ، القاهرة ، ط٣، ١٩٦٨م .

٢. تاريخ النقائض في الشعر العربي – أحمد الشايب ، مطبعة السعادة – مصر، ط٢ – ١٩٥٤ م .

٣. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام + القرشي : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مطبعة لجنة البيان العربي . مصر ط١ – ١٩٦٧ م .

٤. ديوان قيس بن الخطيم – تحقيق د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، مطبعة العاني – بغداد – ط١ – ١٩٦٢ .

٥. ديوان قيس بن الخطيم – عن ابن السكيت – تحقيق د. ناصر الدين الأسد ، مطبعة المدني ، القاهرة – ط ١ – ١٩٦٢ .

٦. شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة – د. زكي المحاسني ، دار المعارف بمصر – ١٩٦١ م .

٧. طبقات فحول الشعراء + ابن سلام الجمحي : أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله (٢٣١) هـ ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٢ م .

٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده + ابن رشيق القيرواني : أبو علي الحسن بن رشيق (٤٥٦) هـ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر ، ط٣ – ١٩٦٣م .